بلاغة تشبيه المعقول بالمحسوس في الحديث النبوي

إعداد

د. وداد بنت راضي

Scanned by CamScanner

بلاغة تشبيه المعقول بالمحسوس في الحديث النبوى

مقدمة البحث :

التصوير أداة حية وفاعلة لنقل المعنى الذهني المجرد إلى معنى حي ملموس إذ من خلاله يصبح المعنى هيئة وحركة وقد كثر استخدامه في الحديث النبوي الشريف من خلال تصوير المعاني المجردة المعنوية للمخاطبين إلى معنى ملموس منظور معروف يلمسونه بايديهم ويرونه بأعينهم وبذلك يجعل المعقول فى مرتبة المحسوس ، ويرفع المحجوب عن المعاني ولذلك يؤدي الغرض الذي يتوخاه ويصل إلى ما يريده من تثبيت الفكرة والمعنى أمام السامع لكلامه وهذا من عظيم فصاحته – صلى الله عليه وسلم – .

وقد قصد هـذا البحث بيان أهمية التشخيص وضـرورته في نقل المعاني المعقولة وتقريبها إلى الأذهان وهو أثر من آثار البلاغة وبخاصة فى بلاغته وهذا أشرف آثار بلاغته عليه الصلاة والسلام وأسلوب مـن أساليب التصوير الفني البليغ .

Scanned by CamScanner

مفهوم التشخيص

وقيمته البلاغية

التشخيص هو عبارة عن التعبير عن المعنى المجرد الذهني بشئ ملموس منظور ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، فيمنح الصورة الحياة الشاخصة والحركة المتجددة .

ومن خلال التصوير يصبح المعنى المجرد هيئة وحركة ، والحالة النفسية المعنوية لوحة أو مشهد ، مجسمة مرئية محسوسة .

وهذه الطريقة تعطي الصورة الحيوية التامة .

والتشخيص عملية نفسية ، ووظيفته التأثير في نفس المتلقي . وإثارة انفعالة المناسب عن تشخيص المعاني المجردة في صور حسية ملموسة مرئية ، يخيل للمتلقي أنها متحدة بها متمثلة فيها ، ويأتي لتوكيد الصفات وإثباتها للمعاني التى يراد عرضها من خلال الصورة .

وقد أكثر الأدباء والشعراء من الإعتماد على التجسيم في صورهم ، وقد أكد البلاغيون على ربط التجسيم والتشخيص بالتوكيد والمبالغة (١)

وقد ذهب الزمخشري إلى أن لعملية التشخيص أو التجسيم التي تتوافر عليها الأمثال العربية : " شأنا ليس يخفى في إبراز خبيات

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ١٧٦

Scanned by CamScanner

المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن . والغائب كأنه مشاهد [1]

وقد وقع التجسيم كثيراً في القرآن الكريم . ويعتبر أحد الأدوات والوسائل المفضلة في التصوير الفني للقرآن الكريم [2] ومن هذه الصور الفنية الرائعة التى اعتمد فيها القرآن على التجسيم قوله تعالى : مَثَلُ الذِينَ كفَرُوا بربِّهِمْ أعمالُهُمْ كرمادٍ اشْتَدَّتْ به الرِّيحُ في يومٍ عاصفٍ لاَ يقْدِرُون مِمَّا كسَبُوا [إبراهيم : ١٨] .

إنه يجسم الأعمال " أعمال الكفار " فيجعلها في صورة محسة أمام العين مثل الرماد الذي تذروه الرياح العاصفة . وتذهب به وتبدده حيث لا يتجمع أبداً .

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى :ألَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كلِمَةً طيِّبَةً كَشَجَرةٍ طيِّبَةٍ أصْلُهَا ثابتٌ وفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإذْنِ ربِّهَا ويَضْرِبُ اللهُ الأمْثَالَ لِلنَّاسِ لعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون (٢٥)

ومثَلُ كلِمَةٍ خبيثَةٍ كَشَجَرةٍ خبيثَةٍ اجْتُثَّتْ من فوْقِ الأرْضِ ما لَهَا من قَرَارٍ (٢٦) [إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦] .

هذه مقدمة موجزة عن مفهوم التجسيم الذي به تصير الأشياء المعنوية صوراً حية ذات صورة وشكل وفائدة في توضيح المعنى وإبراز الفكرة وتقريبها للأذهان ، وكيف أنه من أساليب التصوير الفني البليغة والدليل على ذلك وقوعه في القرآن بكثرة كما رأينا في الآمثلة .

---

(١) الكشاف ٧٢

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ٣٤

Scanned by CamScanner

أن الرسول صلى الله عليه وسلم معلمه القرآن . فهو النبع الصافي الذي شرب منه ، وتكون من خلاله تعبيره ونطقه . لذلك نجده عليه السلام يعتمد كثيراً في تصويره للمعاني والدلالات على التصوير . فنجده يصور للمخاطبين المعنوي عن طريق تمثيله بالحسي المنظور المعروف أمام أعينهم والذي يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم . وبذلك يخرج الخفي الى الظهور والعيان ويرفع المحجوب عن المعاني . ويشخص للناس المعاني بالمدركات الحسية التي يعتادونها في بيئتهم ويتعاملون معها دائماً ،وبهذا فهو يؤدي الغرض الذي يتوخاه . ويصل الى ما يريد من تثبيت الفكرة والمعنى أمام السامع لكلامه . وهذا من عظيم بلاغته ودلالة فصاحتهصلى الله عليه وسلم

يقول النبي الكريم مصورا حال المؤمن . عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم** : (مثل المؤمن مثل النخلة ، **ما أخذت منها من شيء نفعك**) [٢، **كتاب العلم** . باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا ، ١٥ ، في كتاب صفات المنافقين] .

إن الرسول عليه السلام هنايصور صورة فنية بليغة لحال المؤمن ، وهو شئ معنوي لا يدرك إلا بالحس ، وذلك من خلالالتشخيص . فشبه (حال المؤمن) بالنخلة ، فأحال الحالة صورة وهيئة ، وجسم المعنوى ، وشخصه ، فأخرج المعنى الذهنى في صورة حسية .

والصورة المحسة التي التقطها ذكرها الحديث هنا هي صورة النخلة ، فهو هنا يقدم صورة يرسم من خلالها حال المؤمن هذا الصورة (النخلة) مألوفة أمام عين العربي ، فهي في بيئتة يتعامل معها كل يوم ،

Scanned by CamScanner

ويعرف تماماً خيرها وفائدتها الجمة ، وهذا من بلاغة عليه السلام في تخير الأمثال التي يصور من خلالها مقصوده ويجسم عن طريقها المعنى المراد التعبير عنه .

وقد علل البلاغيون بلاغة التجسيم والتصوير من خلاله بأن أنس النفس بالمدركات الحسية أعظم من منها بالمدركات المعنوية ، وذلك لأن الحس هو الطريق الأول لادراك النفس

ومعرفتها [١]

وعلى هذا الأساس ذهب عبدالقاهر الجرجاني إلى أن تشخيص المعاني بالمدركات الحسية ، يكون أمس بالنفس رحماً ، فالتشخيص ينقل الصورة من مجرد إلاخبار الذي يحتمل الصدق والكذب إلى تخيل مشاهدة أحداثها ووقائعها ، مما يوهم المتلقى ، أن ماهو مبني على الظن أصبح يقيناً[٢].

أما بالنسبة للغة : فنجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتخير اللفظ البليغ المؤثر القريب إلى الذهن المعروف لدى سامعه ، فعندما يتخير لفظ (النخلة) هنا دون الأشجار فهو يعلم ما تمثلة النخلة للإنسان العربي من قيمة ومالها من مكانة لديه ، ثم تنكير لفظ " شيء " الذي يفيد العموم (والشمول ، إذ كل ما في النخلة مفيد ونافع من أول جزء فيها إلى آخر جزء ، وهكذا المؤمن في كل أحواله نفع وإفادة للناس ، كما أن النخلة كلها خير فهو أيضاً كله خير ونفع .

(١) أسرار البلاغة٩ ، ١
(٢) السابق١١٢

Scanned by CamScanner

قد اختار الرسول اللفظ المناسب . واتقاه من نفس بيئة المخاطبين لذين يخاطبهم . وبذلك يكون المعنى أكثر وضوحاً أمام العيان . وأكثر للمقصود واضحاً بارزاً .

٢- تصوير حال المؤمن والكافر .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : مثل المؤمن كالخامة من الزرع . من حيث أتتها الرياح كفأتها . فإذا عدلت تكفأ بالبلاء . والفاجر : كالأرزة . صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء) .

إن الرسول هنا يصور حال المؤمن والكافر . فيشبه المؤمن بالنبتة البسيطة من الزرع . فالخامة أول ما ينبت على مساحة واحدة من الزرع ، تميلها الريح من كل الجوانب ، فإذا ما اعتدلت الريح أصابه البلاء . فهكذا حال المؤمن تميله الحوادث والمصائب ولكن لا تقتلعه فهو ثابت في مكانه .

أما الكافر الفاجر فإن الرسول يشبهه بشجرة الأرز الصلبة المعتدلة التي لا يصيبها شئ يميلها ، حتى يقصمها الله بقدرته .

هذه صورة نبوية رائعة اعتمد فيها الرسول- صلى الله عليه وسلم- على التمثيل الأدبي الجيد . جسم من خلالة حال المؤمن والكافر تجسيماً حسياً رائعاً ، تراه بالعين وتلمسه باليد ، فأخرج ذلك المعنى الخفي للعيان الظاهر .

( ) صحيح البخاري باب صفات المنافقين كتاب المرض (٥٦٤٣)

Scanned by CamScanner

إن في اختياره الخامة من الزرع للمؤمن مثلا لتصوير صادق فما أصدقه وأدقه من تصوير حال المؤمن وتمثيله ، فإذا تأملنا حال المؤمنين رأينا كثيراً منهم لا يكاد ينجو من مأزق أو بلاء في نفسه أو أهله أو ماله إلا وقابله بلاء آخر ، فهو دائم الوقوع والاعتدال ، وقد يبلغ به الضيق مبلغاً كبيراً كلما رأى نفسه هدفاً للقدر ينوشه بين الحين والآخر ، وهو بعد متمسك بدينه واثق به ، في حين يرى جاره الفاجر يرتع في الحياة ينهل من المحرمات دون أن تعثر قدماه ، حتى إذا جاء موعده مع الله قصمه دون رحمة ، وبلا رجعة فلا تقوم له قائمة . أليس هذا هو حال المؤمن وحال الكافر بالفعل في حياتنا اليومية ؟ !

إنه هو بالفعل ، ذلك الذي مثله رسول الله بسحر بيانه وروعة تعبيره ، وجمالتصويره للمعنوى في صورة الحسى الملموس .

وإذا ماذهبنا نستجلى البلاغة اللغوية في الحديث نجد ذلك السحر النبوي في اختيار الألفاظ ودقة التعبير .

فالرسول يختار من الزرع (الخامة) وهي القصبة اللينة من الزرع وهي أول ما ينبت على ساق واحدة ، فاللفظة (الخامة) توحى بالضعف واللين معاً ، فهي ضعيفة لأنها أول النبت ، لم يشتد العود بعد ، وهي مع ذلك لينة تميل مع الريح أنَّى مالت ، وهذا اللين هو الذي يحميها من الكسر والقصم ، فتظل باقية ، موجودة ، مرة تعتدل ومرة تميل ، لكنها لا تكسر أو تقلع ، هذا ما يناسب حال المؤمن .

Scanned by CamScanner

أما الكافر الفاجر ، فإنه يختار ما يناسب حالته من الألفاظ . فشبهه بشجرة الأرز خاصة ، دون الأشجار ، وهي معروفة باستقامتها وصلابتها ، وقوتها ، فلا تميل مع الريح أو تعتدل ، فهي صماء معتدلة

لذلك جاء بلفظ (يقصمها) الذي يناسبها ، وتخيل مافي اللفظ (قصم) من شدة وقوة ومفاجأة تتناسب مع شدة الشجرة وقوتها ، فلا يناسبها إلا ذلك القصم الشديد .

إن للتمثيل هنا أشد الأثر النفسي في تثبيت المعنى وإبراز المدلول وتشخيصه أمام المستمع ، وقد وصف تأثيرة النفسي إمام البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني ، قائلاً : " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي بإختصار في معرضه . ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورتة كساها أبهة ، وأكسبها منقبة . ورفع من أقدارها ، وضاعف قواها تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا " (١) .

والتصوير في أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأداة المفضلة في حديثه ، فليس هو حُلية أسلوب ، يزين به الكلام ، أو فلتة تقع بين الحين والآخر ، إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة في تعبيره عن المعاني ، وتقريبها للأذهان ، وكان التشخيص هو أولى أدوات هذا التصوير .

(١) أسرار البلاغة ٩٢.

Scanned by CamScanner

٣- تصوير علاقة المؤمنين بعضهم ببعض .

يقول ﷺ : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [متفق عليه] .

أراد عليه الصلاة والسلام أن يقرر حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين ببيان اللوزام البينة لوجوده فضرب لهم فيها مثلاً يصورهم – حتى كانوا عليها – صورة أعضاء الجسد في الجسد ، إذا تألم أحدها لم ينفرد بالألم دون سائرها ، فيسهر الجميع لسهره ، ويحم الجميع لحماه [١].

إن التشخيص هنا أدى معناه وقيمته البلاغية في هذا الحديث حق الأداء فهو كما قال الرماني في فائدته : " أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه " [٢]وهذا يعني ربط الفكرة المعنوية المجردة بالصورة الحسية ، وجمع المعنى المجرد وضمه إلى المعنى الحسي ومقارنته به ، لجامع بينهما يمكن المتلقي من الاستجابة المناسبة حينما تعرض أمامه تلك المعاني المجردة ماثلة بالمشاهدة أو مدركة بالحس .

وهذا ما فعله الرسول الكريم في تمثيلة النبوي الشريف ، إذ شبه علاقة المؤمنين في توادهم ببعضهم وتراحمهم وصلات الإخاء المتبادلة بينهم شبه هذه العلاقة ، بالجسد الواحد في تماسكه وقوته

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية. ١٩

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٨٢.

وترابط أعضائه كل عضو بالآخر في علاقة ترابط حميمة بحيث لو ان عضواً من هذه الأعضاء أصابة مكروه أحست به سائر الأعضاء وتألمت لألمه .

وفي ذلك تجسيم بليغ لتلك العلاقات الإنسانية المعنوية بين المسلمين والذي لا يستطيع الإنسان أن يحسها بإحدى الحواس أخرجها له التمثيل النبوي إلى حيز الحس والادراك والمشاهدة العياتية ، فكان المعنى أكثر وضوحاً وبروزاً وترسيخاً في ذهن السامع ، وذلك ما يؤكده ابن رشيق القيرواني الذي يرى في التشخيص أن تصوير مالا تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه ، والمشاهد أوضح من الغائب[١].

ففي هذا التشخيص وضح صلى الله عليه وسلم " أن أعضاء البدن كلها وإن لم تكن متساوية في الأهمية لكنها متساوية من حيث تألم الجسد لحلول أي ضرر عليها فالأصبع والظفر والعين واليد والرأس كل أولئك إذا حصل لها مكروة تألم صاحبها وسهر من أجل ذلك " [٢].

٤- تصوير علاقة المؤمن بأخيه المؤمن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن مرآةِ أخِيه) [متفق عليه] .

(١)العمدة٢٥٦

(٢)الخصائص البلاغية واللغوية فى اسلوب الحديث٤٤٩

Scanned by CamScanner

ن رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا يشبه حال المؤمن الناصح
تجاه أخيه المؤمن بالمرآة فهو يمثل ذلك الشئ المعلوم والمحسوس
بالشئ الملموس وهو المرآة .

فيخرج تلك العلاقة المعنوية إلى العيان ويوضحها جليه من خلال
تمثيلها بالمرآة ، فكما أن المرآة واضحة جلية ناصعة تظهر ما يقع
أمامها بوضوح وتكشف عنه مباشرة وتعكس صورته الحقيقية دون
أي خفاء ، فتظهر محاسنه فيستحسنها ويزداد منها ويرى مساويه
فيستقبحها وينصرف عنها كذلك علاقة المؤمن بأخيه المؤمن
واضحة جلية ، يرى نفسة فيه واضحة جلية دون نفاق أو غش و
تدليس ، فلا يخدعه فيظهر له شيئاً آخر ، كأن يرسم لها صورة غير
صورته أو يظهر له مالا يعبر عن حقيقة واضحة وهكذا نجد أن الحديث
قد جمع بين (المؤمن) و (المرآة) في صفة معقولة وهي أن المؤمن
ينصح أخاه بما يراه من حسن كما تُري المرآة الناظر إليها ما يكون
بوجهه من الحسن وخلافه .

ويعتبر هذا الحديث من جوامع كلمه إذ نجده بذلك الإيجاز البليغ .
يعبر بأقل الكلمات عن معاني كبير تكثيرة ، والإيجاز من أظهر الخصائص
في البلاغة النبوية . وفي الإيجاز تأتي الألفاظ غير مقصودة في أنفسها
، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض.والإيجاز في الحديث الذي بين
أيدينا قد وصل بالأسلوب إلى أقصى درجات الرفعة والسمو حيث جاءت
العبارة " المؤمن مرآة المؤمن " مختصرة والمعاني متعددة ، فيها ثراء
وعمق وقوة ، فتأمل كيف أن ثلاث كلمات فقط تعبر عن كل هذا
المعاني والدلالات العميقة ، ولا غرابة في ذلك لأن للإيجاز في

الحديث النبوي الشريف ما يميزه عن سائر الكلام ، لذى استحق أن يوصف بوصف خاص لا يتصف به إيجاز سائر البشر في كلامهم وهو ما أطلق عليه النبي نفس عليه السلام " جوامع الكلم " .

وهذا ما يؤكد تميزة البلاغي صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس ، إذ نجد الكلام سهل المأخذ قريب المتناول ، يحمل فكراً دقيقاً ، ومعان عميقة[١].

٥- التمثيل بالصورة والحركة لحياة الناس ومجتمعهم وما يموج به من اتجاهات وتيارات وأهواء مختلفة .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم : استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فأذوهم . فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على يدهم نجوا جميعاً " [البخاري] .

أراد الرسول هنا أن يحدد الحرية الشخصية للفرد بما لا يعقبه ضرر الجماعة ، وهو مبدأ معروف في شريعتنا الإسلامية ، وكذلك واجب الصالحين في المجتمع تجاه المفسدين إذ يجب عليهم هدايتهم وإرشادهم، فإن لم يستجيبوا فيجب عليهم قمعهم والأخذ على أيديهم

(١) البيان النبوى ٢٤٨

Scanned by CamScanner

حتى لا تغرق المركبة الجماعية ، فيعم الهلاك للفريقين ، فلم يقدم ذلك في أسلوب تقريري ، بل لجأ إلى التصوير الفني ليكشف عن هذه الحقيقة .

فيصور ذلك المعنى من خلال التمثيل الأدبي الرائع ، وذلك بتصوره سفينة تسبح بالناس فوق الموج ، وقد جلس أناس أعلاها وآخرون أسفلها ، وكان من بالأسفل يذهب إلى أعلى ليستقي الماء ، فبدا لهم أن يخرقوا السفينة من موضعهم بدلاً من ذهابهم ومشقتهم ليصلوا إلى الماء مباشرة ، وذلك خطر على الجماعة كلها التى بالسفينة ، فلا بد أن تهب الجماعة لدرء ذلك الخطر وإلاهلكوا جميعاً ، فحرية الفرد إذن مقيدة بحرية الجماعة .

إن التجسيم هنا قد ألقى ضوءه النافذ على مشكلة الحد من الحرية الشخصية ضماناً لسلامة المجموع.

وبذلك أصبح المعنى المقصود التعبير عنه وتوصيله للسامع صورة حسية يراها برؤيا العين ، بدلاً من أن يتخيلها في ذهنه هائمة معنوية بعيدة عن الفهم .

كما أن بعض أسباب روعة هذه الصورة ترجع إلى الأسلوب القصصى الرائع الذي استخدمة صلى الله عليه وسلم في كلامه صلى الله عليه وسلم ، فالأسلوب القصصى يحمل ميزات وخصائص تصويرية رائعة وهادفة إلى العديد من الغايات مما يمنحه قيمته ويجعله غضا متميزا من الأساليب ذات القيمة الفنية والأثر المميز(١٤،ص:٢٥٩)

ومن أهم مميزات ذلك الأسلوب القصص قدرته على نقل المعنى الذهني المجرد من حالته التجريدية الخالصة إلى نوع من التشخيص الحسي الذي تتحول فيه هذه الأحداث والمعاني الذهنية إلى شخصيات ووقائع محسة ، وهذا ما استطاع الرسول الكريم ببلاغته أن يصل إليه في استخدامه القصص في حديث السفينة .

فالناظر إلى هذا المثل يجده مليئاً بالحركة والحيوية والمشاهد المتتابعة ، فهاهم القوم مقبلين على ركوب سفينتهم ، وهاهم يقتسمون أماكنهم فيها بالقرعة ، حتى إذا استقروا فيها بدا لنا مشهد آخر فيه يظهر أهل الأسفل متجهين إلى أعلى السفينة يحملون الماء ثم يعودون به إلى أماكنهم ، ثم يبدو لنا مشهد أهل العلو وقد تأففوا مما أصابهم من مرور القوم عليهم ، فهم يعلنون ضيقهم وتبرمهم بالأمر ، وأنهم لن يتركوا أهل الأسفل يلحقون الأذى بهم ، ثم يظهر لنا مشهد بعض أهل الأسفل وقد حملوا فوق رؤوسهم معلنين أنهم وقد تأذي بهم أهل العلو فليس أمامهم من سبيل سوى أن يخرقوا في نصيبهم خرقاً يستقون منه ، ويكون المشهد الختامي نهاية مفتوحة على أحد احتمالين : فإما أن يقوم أهل الحزم والعزم بواجبهم فيمنعوا القوم مما أرادوه من خرق السفينة فينجوا الجميع، وأما أن يتركوها وشأنهم فتكون الهلكة العامة وتصوير الأمر بهذه الصورة الحية الشاخصة أما العيان تترك في نفس السامع ولا شك أثراً حياً يدرك به كيف يتطور أمر المنكر في المجتمع فهو يبدأ صغيراً كخرق يسير ثم لا يزال يتسع وإن لم يتداركه أهل الحكمة تصعب السيطرة عليه ، وإن ذلك ليوحي للسامع بأهمية الأخذ على أيدي العابثين والقيام على حدود الله ، ويجعله مستحضراً لتلك

النتائج الرهيبة المترتبة على التقاعس عن أمر الله والمداهنة في حدوده سبحانه .

كما يتميز الأسلوب القصصى أيضاً بالإثارة والتشويق ، لمتابعة الأحداث والوقائع منذ بدايتها إلى أن تنمو شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى ذروتها ، حيث يتجمع الترابط الشعوري والتطور الفكري في نقطه واحدة ، وعندها يكون الذهن قد تهيأ لقبول المعنى المقصود ، والقصص عامة يحمل العظة الهادفة .

أما من حيث الزمان فهذه الأقصوصة في البيان النبوي لا ترتبط بزمان معين ، وإنما أتت في المطلق من الزمان ، بحيث يصلح زمانها للماضى والحاضر والمستقبل ، وإن جاء التعبير عنها بالفعل الماضي ، وهذا من بلاغة صلى الله عليه وسلم وفصيح بيانه[١]

كما يرجع د. بيومي أسباب هذه الروعة في التصوير إلى ما تتضمنه الصورة من الإيجاز البليغ ، الذي لا يتجاوز كلمات معدودات ، تشع كل كلمة ببدائع الفكر وروائعه[٢].

كما يؤكد د . بكري شيخ أمين على قيمة التمثيل في هذا الحديث النبوي الشريف ، فيقول أن هذا التشبية قد وقع على صورة وطريقة التشبية التمثيلي في علم البيان ، والتمثيل بالصور المادية المتحركة ، أوقع في النفس ، وأدعى لرسوخ المشهد ، وسرعة تصوره ، وامتداد أثره ، والاهتمام به ، وهذا ماقصد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) فنون أدبية فى البيان النبو ٢٢

(٢) البيان النبوى ٢٣٦, ٢٣٥

Scanned by CamScanner

في اعتماده على التجسيم في تصوير مثل هذه الحالات المعنوية في صورة حسية ملموسة[١]

٦- تصوير حال البخيل والمتصدق .

عن أبي هريرة -رضى الله عنه- أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديّهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو وفرتْ - على جلده ، حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره . وأما البخيل فلا يُريد أن يُنفق شيئاً إلا لزقتْ كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع) [متفق عليه] .

إن الرسول هنا يعتمد على التصويروالتشخيص في رسم صورة لهيئة المنفق والبخيل ، وهي حالة معنوية ونفسية يخرجها صلى الله عليه وسلم في صورة حسية ملموسة ، فهو يمثل حال البخيل والمتصدق تمثيلاً حسياً يجعل المعنى واضحاً وأكثر تثبيتاً في ذهن السامع .

فالمنفق مثل الرجل الذي يلبس جبة من حديد ، كلما أنفق وتصدق وسعت على صدره وجسده حتى تغطي كافة جسده ، وأما البخيل فكلما هم بالصدقة لزقت وضاقت على جسده إلى الدرجة التي يريد أن يوسعها لكن دون جدوى .

(١) أدب الحديث النبوى ٢٠

Scanned by CamScanner

إن التصوير هنا أخرج المعنوى إلى صورة حسية ملموسة يعرفها الجميع ، ويرونها رؤيا العين ، فأصبح المعنى واضحاً ملموساً ومشاهداً عياناً .

وفى هذا توضيح من النبى صلى الله عليه وسلم للمعنى من خلال التصوير الذى يدل على أنه ليس تقديما للمعانى في صور حسية فقط . وإنمـا تمثيل المعاني للمتلقي وجعلها كأنه يراها فيقدمها له في صور حسية ، تنبع من العرف والبيئة وخبرة المتلقي بالأشياء ، مما يكون له بالغ الأثر في إحداث الاستجابه لدى السامع .

وقد أشار عبدالقاهر الجرجاني إلى أن التشخيص القائم على التقديم الحسى للمعاني المجردة في الصور التشبيهية ، هو أقدر على إحداث الإستجابة المناسبة عند المتلقي ، وتهيئة المناخ النفسي الملائم للتجربة الشعورية المراد تقديمها وتصويرها .

ومن الخصائص اللغوية والبلاغية الظاهرة هنا في هذا الحديث ارتكاز الأسلوب البياني فيه على دعامتين من دعائم إظهار المعاني وإبرازها بشكل محكم وواضح أتم ما يكون الوضوح حيث يلتقي فيه النقيضان اللذان يمثلان جانبين متقابلين تبرز من خلاله الفكرة ويتجلى المعنى .

فمن خلال هذا التشبية التمثيلي الذي عقده الرسول صلى الله عليه وسلم بين حال المتصدق وحال البخيل وبين هذه الجبة من الحديد ، ومن خلال تقابلهما المبني على تضاد جميع عناصر التصوير البياني

Scanned by CamScanner

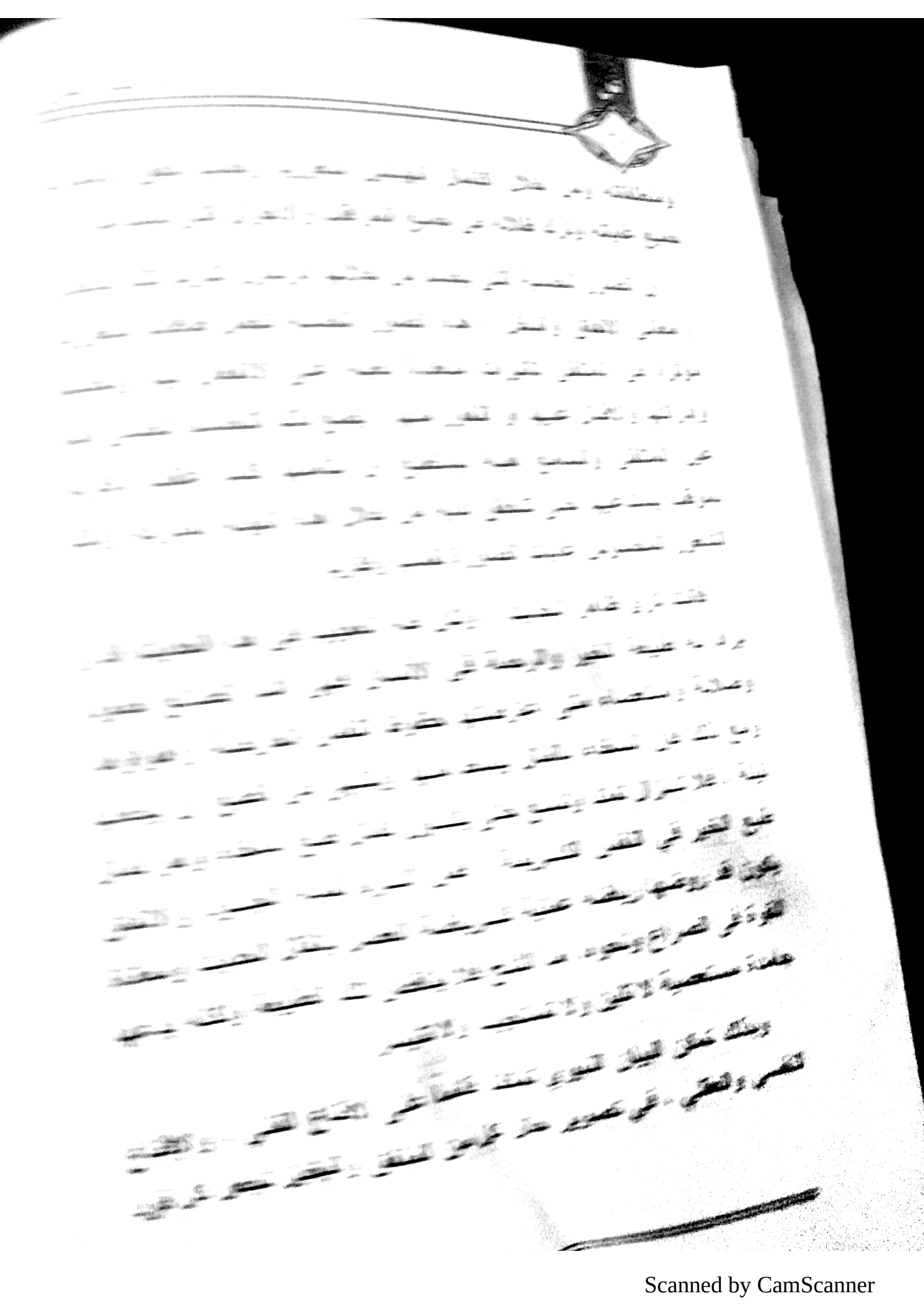

Scanned by CamScanner

فينا يقبل على صورة المنفق المطبوع على الإنفاق ، وتنفر من صورة البخيل المفطور على البخل .

٧- تحذير المسلمين من الغضب الذي يدمر الإنسان .

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشئ من ذلك فليلصق بالأرض) (١)

إن التصوير هنا يحيل الغضب وهو حالة معنوية نفسية خالصة إلى صورة وهيئة حسية أمام الأعين . فمثل الغضب بالجمرة الملتهبة ، وهي شئ محسوس ملموس ، كل منا يعرفه إن لم يكن تعرض له مرة أومرات في حياته لغاية ما .

فالتصوير قام هنا على تقديم المعنى المجرد في صورة حسية هي أقدر على إحداث استجابة مناسبة عند المتلقي ، وتهيئة المناخ النفسي الملائم للتجربة الشعورية التي يحسها الرسول ويريد أن يشعر بها المتلقي ويعيش أبعادها . فكما يعرف الرسول ويؤمن بأن الغضب عبارة عن نار مصطلية في قلب الإنسان ، فهو يريد أن ينقل ذلك الإحساس الشعوري إلى المتلقي ، فكان إحضار هذه الصورة الحسية أشد تمكناً في الصفات التي يراد إثباتها ونقلها ، وأكثر قابلية وقدرة على نقل التجربة وإحداث الانفعالات والاستجابات المناسبة وجعلها شاخصة ماثلة أمام المتلقي ، فتؤدي الغرض المقصود ، وتبرز المعنى المراد .

(١) في سنن الترمذي برقم ٢١٩١ وهو حديث حسن صحيح.

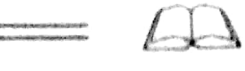

Scanned by CamScanner

ثم يقدم الشرح والتفصيل الذى يوضح ما أجمله في صدر الحديث فيشرح ويفسر آثار هذه الجمرة المشتعلة وما ينتج عنها . من احمرار في العين وانتفاخ في الأوداج ، وهذا من تداعيات حرارة هذه الجمرة .

ثم يأتي التعبير بلفظ (شئ) التي تفيد هنا التقليل أو التصغير . أي أن من أحس بالقليل من ذلك أو بشئ من بوادر هذا الغضب ، وبذلك لا يترك نفسه لكي يتمكن منها الغضب ، ويسيطر عليه كاملاً ، فلا يستطيع دفعاً له بعد ذلك .

ثم يقدم ﷺ الدواء الشافي لهذا الإحساس الغاضب الذي يحرق النفس ويشعل النار بداخلها ، ألا وهو الإلتصاق بالأرض .

Scanned by CamScanner

وفي عبارة (فليلصق بالأرض) تتجلى بلاغة الرسول اللغوية والأسلوبية ، إذ إن الإلتصاق يفيد القرب الشديد من الأرض . واللمس المباشر للتراب ، وفي هذه الكلمة ما يدل على تغيير الهيئة التي كان عليها الإنسان الغاضب تماماً ، كما أن التصاقه بالأرض . يذكره بأصله الذي خرج منه ، وما بهذه الأرض من خصائص تتناقض وحالة الاشتعال والحريق والنار المشتعلة بقلب ذلك الإنسان الذي يسيطر عليه ذلك الشعور .

فالأرض والتراب أنسب لإطفاء ذلك الإحساس وإخماد تلك الأحاسيس الملتهبة . إلى جانب تلازم الشرط والجواب في عبارة واحدة موجزة . فالشرط (من أحس بشئ من ذلك) يكون جواب الشرط مقترناً بالفاء التي تفيد السرعة (فليلصق بالأرض) .

فجاء الجمع بين الشرط والجزاء في إطار أسلوب موجز يمثل فيه الشرط والجزاء وحدة لغوية متماسكة أدت المعنى المقصود في قوة وتركيز وإيجاز دون إطالة أو خطل في الكلام ، أو زيادة أو نقص لكلمة ، وتخيل لو أنك حاولت الاستغناء عن أي لفظ من ألفاظ الحديث لهدم البناء اللغوي بأكمله ، مما يدل على أن كل لفظ يأخذ بعناق من يجاوره ويرتبط به ارتباطاً عضوياً متماسكاً ، وفي ذلك من يتجلى جزء من بلاغة النبوية عليه السلام .

٨- تصوير المسئولية وبيان قيمتها .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، والإمام راعٍ ، ومسئول**

عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله ، ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته) [متفق عليه] .

إنه نموذج من التمثيل القائم على التشبيه البليغ الرائع الذي يحمل تجسيم المسئولية الواقعة على عاتق الزوج والزوجة والإمام والعبد ، تصوركل ذلك بالراعي .

ومن بلاغة صلى الله عليه وسلم هنا أنه يستلهم صورته الفنية المجسمة من البيئة العربية التي تقوم على حياة الرعاية والسقاية والماشية والزروع ، فالرسول يصور تلك الحالة المعنوية (المسئولية) بصورة حسية ملموسة دائماً ومرئية أمام عين العربي . بل يمارسها بنفسه كل يوم ، وهي عملية الرعي ، فهو يخاطب المتلقي بلغته ، ويتخير له الأسلوب الذي يناسب فهمه وإدراكه للأشياء .

وقد تضافرت عدة أشياء متعددة مع التصوير الفني في الحديث النبوي لكي يصل إلى الغاية المرجوة ، وتوصيل المعنى وتقريبه إلى ذهن المتلقى ، فيكون أرسخ مايكون في الذهن ، وأبلغ ما يكون في النفس .

ومن هذه العناصر ، تلاؤم الأسلوب مع الموقف في الحديث النبوي ، وقد سبق الإشارة إليه ، إذ تخير تمثيله الأدبي من واقع البيئة العربية ومظاهرها .

ومن هذه العناصر أيضاً التي تؤكد ملاءمة الأسلوب مع الموقف وتزيد من جمال التصوير الفني داخل الحديث ترديد بعض الجمل التي

Scanned by CamScanner

تمثل دلالة الحديث كله وتجمل مغزاه مبرزة أهميته وخطورته وأثره في إطار من التفصيل والتكرار .

فقد أكد التكرار هنا المعنى ، بحيث اشتمل الحديث من أوله إلى آخره على عناصر تسعى جميعها لتحقيق غاية واحدة في إطار من البيان القوى والدلالة الظاهرة .

وبذلك كان لتخير ذلك المظهر الأسلوبي أهميته في الدلالة على نقل المضمون المراد إلى السامع نقلاً مصحوباً بما يمكن له في عقله وفي نفسه لما يحمله من عناصر التأثير والإقناع ، وما يتضمنه من إيحاء ودلالة سواء بالتصوير الفني القائم على تجسيم المعنوي في صورة حية أو بالتكرار الملـــح بكلمات بعينها دارت الدلالة حولها من أول الحديث إلى منتهاه .

إن التشبيه في هذه الصورة اعتمد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره وسيلة تصويرية أداتها اللغة ، وذلك من أجل بعث الروح فيما يبلغه صلوات الله وسلامه عليه .

كما أن إثارة العاطفة هي الهدف الإيجابي الأول للصورة ، بجوانب الدوافع الفكرية لديه ، وعلاقة التشبيه في هذه الصور الفنية في الأغلب إما علاقة إيضاح وتبيين ، وإما علاقة إيجاز واختصار ، أو علاقة مبالغة وتجسيم . (١)

(١) الصورة بين البلاغة والنقد ٤٥

كما أن التشبيه لم يأت بمجرد تتبع للمتقاربات في الأشكال أو الحجوم والألوان ، لم تكن وظيفة التشبيه أبدا هكذا وإنما المسألة جاءت مسألة نقل إحساس المبلغ وهو النبي الكريم ، إلى المتلقي ، لينفعل به نفسياً ، ويتأثر وجدانياً. (١)

ولو أردنا أن نصف ذلك على مالدينا من أدب الرسول الكريم نوجز أن الصورة البلاغية في أدبه صلى الله عليه وسلم مما يشرف البيان العربي في كافة عصوره ، بل يتخذ منه نموذجاً سامياً يقتدى به ويحتذى ، لأن هذه الصور الفنية في لبابها الصميم صورا حية وإبداع ملهم مطبوع لاصنعة أديب متصنع متكلف يتفاصح . (٢)

والتشبيه لايكون قوام الأدب ، ودليل الأدبية العالية في الكلام إلا إذا جاءت وسيلة لحسن التعبير ولم تجئ غاية مقصودة يتعمدها الشاعر ، ويتكلف لها ، ولو لم يكن لها دلالة ، ولا زيادة في إحساسنا بالشئ المشبه أو المعنى المقصود " .

والتشبيه في البيان النبوي يحمل سمة البلاغة النبوية التي تعتمد على الأسلوب الجميل في البيان والإيضاح ، ويأتي التشبيه طبعا لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، لإنه لم يقصد لذاته

٩- التشخيص والصورة الكلية .

إن الصورة البيانية (جزئية كانت أم كلية) هي سمة الإبداع الأدبي ، والمحلل الأدبي للصور الفنية التي قامت على التجسيم في هذه

(١) الديوان ٤٠

(٢) البيان النبوى ٢٣١

Scanned by CamScanner

الأحاديث النبوية يجد أنها كلها صور كلية ، والصورة الكلية أشق تركيبا ، وأدل على المقدرة والإفتنان من الصور الجزئية التي تقع في تشبيه مفرد بآخر ، أو في استعارة ، أما الصورة الكلية فهي التي تضم شتيتا من الصور المتناثرة ، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها ويجعل منها خطوطاً ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح وسمات .

وهذا مـــا نلحظه في التصوير النبوي الشريف ، إذا إن الصورة الواحـــدة نجدها تضم شتيتاً مـــن الصور المتناثرة ، يجعل منها خطوطا ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح وسمات مميزة .

ولنا أن نتأمل هذه الصورة الفنية التي تؤكد ذلك .

عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة آخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعَلَّمَ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي بعثنى به) [1] [متفق عليه] .

هـــذا المثل الأدبي الرائع قائم على تصوير كلى يضم في إطارة شتيتاً من الصور الجزئية المتناثرة ، ولكنها خضعت جميعها لنسق ونظام واحد يؤلف بين خطوطها في لوحة كلية شاملة .

---

(1) صحيح البخارى ٧٩، صحيح مسلم ٢٢٨٢

Scanned by CamScanner

ولنتأمل هذه الصور الثلاثة داخل اللوحة الكلية الشاملة
الأرض التي قبلت الماء وانبتت الكلا والعشب وهذه صورة أولى
الأرض التي تحتفظ بالماء ولا تنبت ولكن الناس يشربون مما
من ماء ، وهذه صورة ثانية ، أما الصورة الثالثة فصورة الأرض
لا تمسك ماءً ولا تنبت عشباً ، فهى صور متناسقة مترابطة في لوحة
فنية كاملة وشاملة لكل الخطوط والألوان .

هذه الصورة الكلية الشاملة هي التي مثل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المعاني الخاصة بالانتفاع بالهـــدى والعلم ، وذلك في صورة تختال أمـــام العيون ، تجعل السامع يفكر فيما يسمع فيدقق ويحلل ويعقد مقارنة بين الطرفين المتماثلين.

فيرى المعنوى في صورة حسية مرئية يدركها من خـــلال الحواس بعدما كانت معان خيالية هائمة في الخيال .

أما على المستوى اللغوي والأسلوبي فنجد البلاغة النبوية تتجلى أروع ما يكون ، فقد حقق كل عنصر لغوي داخل إطار الصورة دوره في الإيضاح والتأثير ، ويمثل خيطاً من خيوط الصور المتناثرة ، ويكشف عن جزء المعنى الكلى المراد .

فنجد اختياره عليه السلام للتعريف دون التنكير لألفاظ المشبه ، وهو العنصر المعنى المراد تمثيله ، فجاءت ألفاظ (الهدى) ، (العلم) ، (الغيث) معرفة لا يكتنفها غموض أو إبهام ، فلاءم ذلك المعنى المقصود وأكده ، وهو الكثرة والوضوح .

Scanned by CamScanner

ثم جاء لفظ (الغيث) معرفة أيضاً فحقق من خلال تعريفه نفس الغاية وأكدها ، ثم ورد لفظ الماء في القسم الثاني (المشبه به) معرفة أيضاً ارتباطاً لما يدل عليه من الظهور والنفع ، على العكس من ورود لفظ (الماء) في القسم الثالث (نكرة) لما يرتبط به من مضمون التصوير الذي وضع في إطاره ودلالة التعبير الذي إحتواه حيث الدلالة على التلاشي والضياع وعدم الانتفاع ، وورد ما ترتب على ذلك أيضاً نكرة مرتبطة بنفي حيث الدلالة على العدم والتلاشي.

كما جاء التنكير في القسم الأول أيضاً من جهة أخرى محققاً أغراض التصوير الكلي من الشمول وعموم النفع ، حيث وردت لفظة (أرضاً) نكرة للفعل أصاب ، للدلالة على عموم النفع وشمول الفائدة . وعدم اختصاص ذلك النفع بقوم دون غيرهم ، فهو للناس كافة . كما جاء تنكير لفظ (قيعان) ليدل على عدم التأثر والتاثير معاً أو عدم الانتفاع والنفع في آن واحد.

لقد ساهمت كل العناصر اللغوية والأسلوبية المختارة في التصوير ، وفي بيان جوانب الصورة وإيضاح كل جزئياتها كما يأتي العطف والإثبات والنفي وحسن التقسيم إلى جانب التعريف والتنكر ، كلٌ في مكانه الملائم الذي يعبر عن المعنى ويزيده اشراقاً ووضوحاً .

والأمثلة التي تؤكد اعتماد الحديث النبوي الشريف على التصوير الفني من خلال التجسيم الممثَّل والتصوير الكلي كثيرة جداً ، ولنتأمل مثل هذه النماذج التي مثل فيها رسول الله بين الجليس الصالح وحامل المسك وجليس السوء ونافخ الكير ، والذي مثل فيه بين قارئ القرآن

Scanned by CamScanner

والأترجة ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرة ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ، المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ريح لها وطعمها مر .

وتمثيله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم الصلاة بالنهر الذي بباب المؤمن يغتسل فيه خمس مرات .

وكذلك تمثيله صلى الله عليه وسلم بينه بين الأنبياء الآخرين بالرجل الذي بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلاموضع لبنة تركها في البيت .

والتمثيل في الحديث النبوي والتصوير بالمحسوس كثير ، اعتمد عليه في إبراز المعنى المقصود والتعبير عن الغاية المبتغاة ، ومن يريد أن يرى ذلك فليراجع حديثه النبوي ويتأمل بيانه الشريف.

يقول أحد الباحثين " هذا المثل الأدبي الرائع قد جلا المعاني الخاصة بالانتفاع بالهدى والعلم جلاء مؤثراً ، فأضاف إلى الحقيقة الفكرية بمدلولاتها الثلاثة صورة جعلتها تختال أمام العيون في ثوب بهيج ، ولا شك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبية فيزداد تأثيراً وانفعالاً بما سمع ، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققاً ومحللاً إذ مس أوتار قلبه مساً حياً "(١)

١٠- تحقق بلاغة الرسول في الإبداع النبوي .

إن الأدب هو مجئ الفكرة في قالب فني ، والقالب الفني هذا هو ذلك التخير الملائم للألفاظ وسلامتها من المتنافر الحوشي ،

(١) البيان النبوى ٢٣٣

وقد جاءت هذه الألفاظ ممزوجة بالعاطفة الشفافة الرقيقة ، وذلك كله في صورة تمثيلية موحية بعيدة عن المباشرة والخطابية .

والتصوير الفني هو عماد الأساليب وأساسها الذي يفردها ويميزها عن الكلام النثري العادي ، الذي يخلو من العناصر السابق الإشارة إليها .

فهل تحقق ذلك في الإبداع النبوي الذي تناولناه بالدراسة والبحث هنا ؟

بالطبع نعم ، فلقد تحققت الأدبية في كلامه صلى الله عليه وسلم أروع ما يكون التحقق .

وليس أدل على ذلك من اعتماده عليه السلام على التصوير في التعبير عن أفكاره ، ففي كل فكرة يقدمها للقارى نجده يتخير لها أنسب ما يلائمها من الألفاظ ، ويستخدم لها الأسلوب الذي يتلائم وحال المخاطب ، محققا المعنى العميق للبلاغة ، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ثم يأتي ذلك كله من خلال تصوير فني بليغ يجسم من خلاله المعنى ويقدمه في صورة حسية قريبة إلى ذهن المخاطب ، وأشد ارتباطاً ببيئته التي تحيط به ، فيصل إلى ما يبتغيه من غاية أو هدف مقصود .

ولنأخذ مثالاً من الأمثلة التي بين أيدينا والتي اعتمد فيها صلى الله عليه وسلم على التجسيم كوسيلة للتصوير الفني للمعنوى في صورة محسوسة نستجلى من خلالها تحقق عناصر الأدبية في إبداعه النبوي الشريف على أبلغ ما يكون .

Scanned by CamScanner

لتنظر مثلاً إلى تجسيمه لحال المؤمن والكافر ومدى تحقق كل عناصر الإبداع الأدبي الرفيع في ذلك المثال ، ولنجعل المثال حاضراً بين أيدينا كي يتسنى لنا التأمل والنظر :

قال صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمن كالخامة من الزرع ، من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة ، صمّاء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء) .

إن المقصود هنا (أن المؤمن كثير البلاء لا يكاد يخرج من محنة حتى تلاقيها الآخرى ، ولكنه صابر محتسب ، كله أمل وثقة في خالقه ، والفاجر لا يصيبه أذى ولا بلاء ، بل يمد الله له في طغيانه حتى إذا جاء وقت الإنتقام أخذه الله أخذ عزيز بلا رحمة ولا شفقة) .

هذا هو المعنى المقصود كما عبرنا عنه بأسلوبنا النثرى الخطابي المباشر ، فهل تجد هناك فرقاً بين ذلك والأسلوب النبوي الشريف ؟ .

عندما نجيب عن ذلك التساؤل نجد أنفسناوبلاغة الرسول وجها لوجه .

انظر لتخيره عليه السلام لذلك الثوب اللغوي الشفاف الذي يشف عن المعنى في شكل بلاغي بديع .

فنرى جزالة التركيب وتناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، وفخامة الجملة ، ووضوح الصلة بين اللفظ ومعناه ، وذلك كله دون تكلف أو صنعة ، فالمعنى هو الذي يأتي باللفظ وليس العكس .

Scanned by CamScanner

وقد بينا بلاغته صلى الله عليه وسلم في تخيره للفظ والأسلوب في هذا المثال في موضعه .

ثم لم يقدم ذلك صلوات الله وسلامه عليه في صورة من الخطابية المباشرة ، بل تخير الأسلوب التصويري المماثل الذي يتجلى من خلاله المعنى واضحاً جلياً فيفهمه السامع ويعيه ، فترى التشخيص الذي من خلاله يخرج المعنى الهائم الذهني في صورة حسية مرئية يلمسها السامع ويراها صورة بصرية من واقع بيئته وحياته المعاشة .

إن هذا ما يحاول كل أديب جاهداً أن يفعله في تعبيره عن أفكاره وتوصيلها إلى المتلقي ، لكي يخرج كلامه في آخر الأمر في صورة أدبية بليغة مؤثرة ، تتضافر كل العناصر بعضها مع بعض ، من صوت ولفظ وجملة وعاطفة وخيال لكي يصل الكلام إلى ذلك المستوى الأدبي الرفيع وينأى عن النثر الكلامي المباشر الذي يخلو من الفن والإبداع .

ومن أوجه التشخيص البارعة في الحديث النبوي ، حديث أبي موسى رضي الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثلُ الحي والميت) [متفق عليه] .

إن الحديث النبوي هنا يشخص ذكر الإنسان لربه بالكائن الحى الذي تدب في أوصاله الحياة ، أما الذي لا يذكر ربه فهو مثل الميت الفاقد للحياة ، بكل مقوماتها ، وهنا يشخص الحديث النبوي الذكر ، وهو معنوي بحسى ملموس ظاهر أمام العيان .

ولعل بعض أسرار الروعة في هذا التصوير النبوي عن طريق التشخيص ترجع إلى ماتتضمنه الصورة من الإيجاز البليغ ، حيث لم

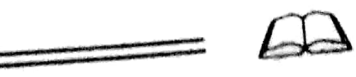

Scanned by CamScanner

يتجاوز الحديث كلمات معدودات أحكم الرسول وضعها حيث تشع ف
لفظة ببدائع الفكر وروائعه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم المثل لإثارة الإنتباه
ولتجسيد المعاني المجردة في صورة محسوسة من أجل تقريبها إلى
الأفهام ، فالأمثال والتشبيهات تساعد كثيراً من الناس على فهم المعاني
المجردة التي يصعب عليهم فهمها . (١)

وكان الرسول يحث أصحابه دائماً على تعلم القرآن وقراءته
والتفقه فيه ، فانظر كيف يستخدم التشخيص والتمثيل في تشجيعهم على
ذلك ، فيشبه صلى الله عليه وسلم المؤمن الذي يقرأ القرآن بالثمرة
الطيبة ، حلوة الريح والطعم ، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالثمرة
حلوة الطعم ، ولكن لا ريح لها ، فعن أبي موسى الأشعري قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمن الذي يقرأ
القرآن مثل الأترُجَّةِ ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن
الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، لاريح لها وطعمها حُلوٌ ، ومثل
المنافق الذي يقرأ القرآن مَثلُ الريحانه ، ريحها طيب وطعمها مُرٌّ
، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح ،
وطعمها مُرٌّ) [متفق عليه] .

لقد لعب التشخيص دوراً فعالاً في تجسيد المعنى وتقريبه إلى
الأذهان ، إذ شبه الرسول المؤمن الذي يقرأ القرآن ، والمؤمن الذي
لا يقرأ القرآن والمنافق الذي يقرأ القرآن والمنافق الذي لا يقرأ

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية١٩٣

Scanned by CamScanner

القرآن ، بالثمار ، فمنها ما هو حلو الطعم والرائحة، ومنها ما لا رائحة له وطعمه حلـــو ، ومنها طيب الرائحة ومرّ الطعم ، ومنها ما لا رائحة لها ولا طعم ، وهي كلها صـــور حسية تجسد من خلالها المعنوي في حسية ملموسة .

ومن خلال التشخيص يضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً لأصحابه يوصيهم فيه بحسن اختيار الرفيق أو الجليس ، ويعرفهم قيمة وفـــائدة الجليس الصالح ، وضرر رفيق السوء ، وذلك من خلال التشبيهات البلاغية الرائعة ، فعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : (مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك : إما أن يُحْذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وأما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة) [متفق عليه] .

ومن أمثلة التشخيص الرائعة تلك الصورة الأدبية التي شخص من خلالها الرسول الكريم (الصلاة) إذ يمثلها بالنهر الجاري أمام بيت المسلم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فلا يبقى من درنه شيء ، فعن أبي هـــريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحـــدكم يغتسل فيه كـــل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يبقى من درنه ، قالوا : لا يبقى من درنة شيئاً . قال : (فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا) [البخاري ، مواقيت الصلاة] .

ولا يخفى علينا هنا مـــا يتضمنه الحديث من جمال فنى وبلاغة رائعة ، فنجد استخدام الرسول لأسلوب التشويق ، وذلك عـــن طريق

المبادرة بطرحه سؤالاً في بداية الحديث يجذب إليه الأذهان فتشر
عليه وسلم ، ويجعلها تفكر في إجابة عن سؤاله ، ثم يأتي بالجو
التي يتم بها المعنى .

فيطرح الرسول سؤالـــه في الطرف الأول من الحديث النبو
الشريف ، وهو ما يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشخص م
خلاله الصلـــوات الخمس ، وهي شئ معنوى نهـــراً جارياً ، وكما يغس
النهر درن الإنسان ووسخه ، كذلك الصلوات الخمسة تغسل ذنوبه
وخطاياه .

والتمثيل في هذا الحديث يوضح خاصية دقيقة من خصائص الجمال
والبيان في الحديث النبوي ، وهي توافق عناصر التشبيه وعدم تنافرها
أو تناقضها ، فالنهر الجاري والذي يغتسل فيه المرء خمس مرات يوميا
، هذه الصفات تتفق مع ما أراد المصطفى عليه السلام توضيحه مـــن
قيمة الصلاة وأثرها في تطهير الإنسان من ذنوبه ومحو خطاياه ،
فيصير نظيفاً ، طاهراً كمن يغتسل بما النهر الجاري .

وعن أبي هريـــرة -رضى الله عنه- أن رســـول الله- صلى الله
عليه وسلم- قـــال : (إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي : كمثل رجـــل
بنى بيتاً فأحسنه وأجملهُ إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس
يطوفـــون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة ، فأنا
اللبنة وأنا خاتم النَبيين) [متفق عليه] .

أن هذه الصورة التمثيلية يشخص فيها رسول الله صلى الله عليه
وسلم حاله وحال الأنبياء ومقداره بينهم بشكل حسى ملموس ، إذ شبه

Scanned by CamScanner

ذلك الوضع بالبيت الحسن الجميل لولا موضع لبنة ناقصة ، أدت إلى نقصان تمام الحسن والجمال .

وأمـــا من الناحية البلاغية فإننا نلاحـظ تصدير ذلك الأسلوب البياني بصورة كلية موجزة ، ثم اتباعها بإستثناء يوحي بشأن مستثنى معين من تلك الصورة دون التعريف بذلك المستثنى من بداية الأمر . حيث يثير ذلك المتلقي ، ويترك له فرصة للتعرف على مكانة ذلك المستثنى ويتنبه إلى مكانتة وأهميتة في الكلام ، ثم يأتي المستثنى متمكنا في موضعه مـــن الصورة تمكنه من عقل المتلقى ونفسه ، فيكون اكتمال المعنى مرتبطاً بهذا الإكتمال الذي نمت من خـــلاله الصورة فحققت غاياتها في بناء تام متماسك العناصر [١٥ ، ص : ٢٢٧] .

وعن طريق التمثيل يصور الرسول الكريم هيئة الشئ المراد تصويره وحركته وصفته النفسية ، روى عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة) [متفق عليه] .

لقد تميز الأسلوب هنا بالاكتفاء بصورة واحدة صوَّر بها حال ذلك الموصوف الواحد الذي تضمن حالين متضادين ، كما تميز بقوة بيان هذين الحالين من خلال اتباع الإجمال بالتفصيل الذي وضحه متضمناً رسم الهيئة والحركة والصفة النفسية .

ومـــن الصور التي ترســـم هيئة حسية للموصوفـــات يستطيع المتلقى أن ينظر إليها نظرة كلية عـــامة حـــال إيجازها ، فعن أبي

Scanned by CamScanner

مـــوسى -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) [متفق عليه] .

فمن الـــوجهة البلاغية البارزة في أسلوب الحـــديث هنا ذلك التلاحـــم التام الذي يتم من خلاله الربـــط بين مضمون الصورة مـــن جهة ، ومضمون واقعي حسى (البنيان) معهود مقرب لمغزاها ، فينتج عن ذلك إيضاح أبعاد المعنى وتحقيق غايات الأسلوب .

ولنتأمل تشخيص الحـــديث النبوي وتجسيمه لمعنى الترغيب وغفران الخطايا من خـــلال زبـــد البحر ، فعن أبي هـــريـــرة -رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من سبح الله في دُبُر كـــل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً ثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقـــال تمام المئة : لا إله إلا الله وحـــده لا شريك له ، له الملك ، ولـــه الحمد ، وهـــو على كـــل شئ قدير ، غُفـــرت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر) [رواه مسلم ، باب الصلاة] .

فالحديث هنا يلمح إلى الرحمة من خلال كثرة فقاقع الماء ، فهذه الرحمة العظيمة تزيح الخوف من كثرة الخطايا ، ولا شك أن الذنوب والخطايا هنا ذهنية مجردة وضخامة البحر وزبده مرئية محسَّة ، وبذلك يثير الحديث في نفس السامع آفاقاً كبيرة من التخيل وإعمال الذهن ، وربط المدركات بعضها ببعض .

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان

Scanned by CamScanner

الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) (١)

إن الذي يميز التشخيص هنا هو أن التعبير مباشر وسريع ، ويقوم على التشبيه البليغ والذي يقوم على كلمة مثل ، وهذا يؤدي إلى التلاحم بين الطرفين المعنوى والحسى ، وتبادل الماهيات بينهما ، فيكسب كل منها من صفات الآخر وماهيته ، وفي ذلك جمال لغوي وإيقاظ ذهني . فالطهارة تصبح نصف الإيمان ، ويرتسم كل كائن منقسم أحد قسميه هو الطهارة ، وفي هذا التقريب دفع وتشويق إلى إدراك الإيمان بالعين ، والحمد يتخذ حيزا مكانيا في الوجود والتجلي البصري .

والميزان هنا ذات الكفتين ليس كميزان الدنيا ، وهنا إطلاق للخيال لأجل استيعاب هذا التصوير ، ويتوج هذا التصوير المجسم ملء العبارتين سبحان الله والحمد لله ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، وهنا يصير النور صلاة نتيجة ذلك التلاحم بين الطرفين ، وأما الصدقة فهي برهان ، وهو إسم من الأسماء الرامزة للضياء والوضوح ، كما أن الصبر ضياء لا نور .

وقد ختم النص بتجسيم استخدم فيه المستوى الاستعارى الفعلي (كل الناس يغدو ، فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها) فالغدو دلالة على الحركة السريعة ويكون فى الصباح الباكر ، فهو أعلى من المشي ، وهذا يجسم التفاعل مع أوامر النص الديني ، وهو سريع كسرعة زوال

(١) صحيح مسلم باب الطهارة برقم ٢٢٣

Scanned by CamScanner

الدنيا ، ثم استعار البيع للنفس ، وعندما يعتقها بإصلاحها يرى شأنها ، والكفر يذكرنا بالعبودية والرق .

وهكذا تجسمت كل هذه المعاني المجردة في صور حسية ملموسة يدركها المشاهد في يسر ووضوح ، وهذا كله بفضل ذلك التصوير الفني الذي اعتمد فيه النبي عليه الصلاة والسلام على وسيلة التشخيص البلاغية .

وتتجلى جمـــالية التجسيم في المغايرة التي تجعل غير الحسي حسي ، ولذلك ينبغي أن تكون الـــوسيلة المجسّمة واضحة ومعهودة ومقبولة ، يرضى عن الذوق الفني ، ولا تشكـــل طلسما أو انحـــراف مهيناً ، ولذلك يحتاج الأمر إلى تدبير ، لأن الصور التجسيمية أعقد الصور تشكيلاً لما تقتضية من درجة تركيبية عالية. (١)

وهذا ما تحقق في البيان النبوي الشريف في فن التجسيم التي استخدمه- صلى الله عليه وسلم - محولاً ما هو معنوي مجرد الى حسي ملموس أمام الأبصار ، يستطيع أن يدركه المتلقي ، ويفهم معناه بوضوح ويسر ومباشرة ، ولذلك كان التجسيم (التشخيص) وسيلة فنية لدعم صدق الخبر والمخبر ، فاختيرت اللغة الحسية لإبراز قواعد الدين في تشريعه وفقهه ، واعتمد البصر في التصوير بكثرة لأنه أكثر الحواس احتكاكاً بالواقع ، وأكثر إمدادا للعقل بقدر من الأفكار [١٢ ، ص : ٤١٥] .

Scanned by CamScanner

وكثيراً ما يعتمد الحديث النبوي الشريف في التجسيم على مشاهدات الطبيعة ، وأن يستخدم منبهاً فنياً للتحول من المجرد إلى الحسي وهو كلمة (مثل) وهو ما رأيناه خلال الدراسة .

كذلك يظهر التجسيم واضحاً جلياً في تجسيد المعنويات ، وبث الحركة والحياة والنطق في الجماد وقد التفت الجرجاني إلى شيء من ذلك بقوله " فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية .... وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة مالم تكنها ، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لاتنالها إلا الظنون ، وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها "[١].

ومما ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله : (لا تستضيئوا بنار المشركين)[٢] أي : تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم فرأي المشركين أمر معنوي يدرك بالعقل وتمثيله بالنار هو إظهار له في صورة محسة مخيفة يبدو فيها رأي المشركين نارا تحرق كل من يلامسها أو يأخذ بها .

وكقوله عليه السلام وقد نظر يوماً إلى أحدً : (هذا جبل يحبنا ونحبه) فجبل أحد هذا الجماد قد استحال إلى إنسان.

يجيش قلبه بعاطفة الحب.

(١) أسرار البلاغة ٣٣
(٢) نيل الأوطار ٤٣١٨

Scanned by CamScanner

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه) نحن هنا أمام يد ليست كالأيدي . إنها يد تدري وتعرف ، وقد كان ذاك الرجل مؤمنا حين استطاع إخفاء الصدقة عن تلك اليد ، لقد نفخ هذا الحديث الحياة في هذا اليد فأصبحت شخصاً ، ويلزم عن هذا أن الصدقة كانت خفية حقا فإذا لم تدر اليد الأخرى عما فعلت أختها فكيف يعلم أحد عن هذه الصدقة ! فما أجمل روعة البيان من خلال هذا التشخيص الحي وبواسطة هذه الطرائق وغيرها عمد الرسول صلى الله عليه وسلم- إلى تصوير المشاعر الداخلية وتحليل الدوافع النفسية المتعارضة ، وتجلية القضايا التجريدية بكل وضوح وشفافيةوأخرجها إلى صور حية شاخصة تراها العين وتسمعها الأذن وتخرج الخفي إلى الجلي ومعه يلبس المتخيل ثوب الحقيقي إذ ذاك تبلغ المعاني ويفهم المراد ، وهذا لا يحظى به إلا المتضلع بلاغة وفصاحة وبيانا ، ومن غيره صلوات الله عليه وسلامة المؤيد بالوحى والمبلغ عن ربه.

Scanned by CamScanner

خاتمة البحث

(١) اعتمد التوجيه النبوى الشريف فى كثير من احاديثه على اسلوب التشبيه التمثيلى الذى يوضح المعانى ويجلى الحقائق.

(٢)أكثر الصور المحسوسة المستخدمة هى المشاهدات لأن الشىء المشاهد أعلق بالنفس وأدعى لقبول الحجة والدليل.

(٣)اختيار نماذج المشبه به من واقع البيئة أدعى لاستقرار المعانى وقبول التوجيهات.

Scanned by CamScanner

المراجع

القرآن الكريم :

[١] أمين ، د. بكري شيخ ، أدب الحديث النبوي ، مصر ، دار الشروق ، ط١ (١٩٨١) م .

[٢] الباسطي د. متولي محمد ، فنون أدبية في البيان النبوي ، القاهرة (١٩٩٢) م ط١ .

[٣] البخاري أبي عبدالله محمد إسماعيل بن المغيرة ، دار الفكر ، الطبعة الأولى (١١٤١هـ - ١٩٩١م) .

[٤] بيومي محمد رجب ، البيان النبوي ، المنصورة ، دار الوفاء ، ط١ (١٩٨٧) م .

[٥] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، الرماني ، والخطاب ، وعبدالقاهر الجرجاني .

[٦] الجرجاني عبدالقاهر ، أسرار البلاغة ، بيروت ، دار المعرفة (١٩٧٨) م .

[٧] الرباعي د. عبدالقادر محمد ، الصورة الفنية شعر أبي تمام ، مربد ، الأردن (١٩٨١) م .

[٨] الزمخشري أبو القاسم محمود عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، بيروت ، دار المعرفة (ط١) د .ت .

Scanned by CamScanner

[٩] ساعي د. أحمد بسام ، الصورة بين البلاغة والنقد ، المنار دمشق ط ١ (١٩٨٤) م

[١٠] السيد كمال عز الدين ، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، أقرأ ، جـ ١ الأولى (١٤٠٤هـ ١٩٨٤) م .

[١١] الصباغ محمد لطفي ، التصوير الفني في الحديث النبوي ، المكتب الإسلامي ط١ (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) .

[١٢] عتر نور الدين محمد ، الصورة الفنية في الحديث النبوي ، دمشق ، دار المكتبي ، د . ت .

[١٣] العقاد محمود عباس ، الديوان ، مصر ، دار الهلال (١٩٧٦) م .

[١٤] العقدة ، د. فتحية فرج محمود ، الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، مطبعة الأمانة ، ط ١ (١٩٩٣) م .

[١٥] فرج ، د. فتحية محمود ، من الخصائص البلاغة واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف القاهرة ، مطبعة الأمانة (١٩٩٣) م .

[١٦] قطب سيد ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار المعارف (١٩٨٠) ط ٩ .

[١٧] القيرواني ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، بيروت ، لبنان ، دار المعرفة (١٩٧٨) م .

[١٨] ناجي د. مجيد عبدالمجيد ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، بيروت ، المؤسسه الجامعية للدراسات والنشر ، ط ١ (١٩٨٤) م .

Scanned by CamScanner

[١٩] نجاتي د. محمد عثمان ، الحديث النبوي وعلم النفس ، القاهرة ، دار الشروق ، د. ت .

[٢٠] النيسابوري أبي الحسن مسلم بن حجاج القشيري ، صحيح مسلم ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

Scanned by CamScanner

" Incarnation " or " Personification " in the Prophet's Tradition Elocutional Study

Summary

" Incarnation" is an alive and effective method foe the transfer of an abstract thought or concept into a tangible and alive indication, through which the concept becomes a "form" and a " movement " . This method has been often employed in the Prophet's noble Tradition, through the illustration of abstract and moral concepts as if being a tangible, visible and recognizable thing which the audience can conceive as if touching it by hand or seeing it by their own eyes. Thus the unclear becomes so clear as if visible, and the hidden meaning is revealed to serve the purpose he intends and to attain the result he aims at, being to clarify the concept and its significance to his audience. This testifies the eloquence of the

Scanned by CamScanner

Prophet (prayers and peace from Allah be upon him). This Study aims at indicating the importance of personification and its necessity for the communication and the clarification of the intended meanings. This illustrates the efficacy of the Prophet's eloquence, and characterizes his elaborate style for the eloqsuent and pertint elucidation of his thoughts .

Scanned by CamScanner